تقاسمنا الرغيف الخطأ

في حالته البائسة تلك سيكون النصف من كل شيء صفقة عظيمة له، نصف مقعد،نصف ضوء،نصف صوت،أو ربما نصف رغيف. فهو أكثر من يتخيل عددا أكبر من الاحتمالات السيئة في ظل اللحظات السعيدة..

كمية من القمح المسحوق وبعض الماء الدافىء،غطاء أبيض يداعب ملمس عجين ناعم ينعكس عليه خيط من خيوط الشمس المتسربة من النافذة،فرن يعلن عن إتمام استعداده لاستقبال أول رغيف من صنع يديها،أعواد ثقاب ورائحة دخان، فقير جدا هذا البيت الذي يخلو من رائحة الخبز...اعتادت هي أن تدثر أناملها الباردة بالعجين، وأن تسد به كل الثقوب السوداء التي تبتلع أسماؤهم وملامح خيبتهم الأولى،بما فيهم ملامحه التي تلازمها أينما ذهبت.

الخبز في عقيدتها صلاة للجائع وملجأ للصائمين، وهذا الرغيف لا يشبه رغيف الجارة ولا يشبه رغيف أمها.. إنه يشبه رغيف "توفيق يوسف عواد" رغيفه العربي اليتيم والذي تم خبزه داخل أفران الحرب العالمية الأولى،وبما أن حياتها معه أشبه بالحرب الباردة قررت أن تتقاسم معه الوجع، أو ربما الرغيف.

وما من شيءٍ يسد جوع الذكرى سوى الماضي،ففي كل ليلة تستقل قطار العودة إلى قائمة المندسين داخل أكمام

معطف الحنين المعلق على جدرانها،تعانق ذكرياتها كما يعانق المنجل سنابل القمح في موسم الحصاد،وتفتش عن حبة القمح التي فقدت جنينها مبكرًا ومع كل زيارة من خيوط الشمس للنافذة تصنع رغيفًا ظنًا منها أنه الحل الأمثل لسد الشقوق التي يتسرب منها صوت أنفاسه الجائعة،وتمتماته الغير مفهومة..

الانطباعات الأولى سرمدية،لذلك كانت تتجنب دائمًا التفوه بالحماقات في لقاءاتها الأولى معه،نحن بحاجة إلى الكذبات الصغيرة لنصنع منها فخ كبير للسعادة..كما فعلت هي تمامًا، نبضة كاذبة جعلت منها سجينة لأكثر من عشرة أعوام.اعتقادها الراسخ بأن هناك من يخطط لإيذاء ماتبقى منها يفسد عليها الهواء الذي تتنفسه فيصبح كل ما حولها مسمومًا..

الحوارات الضيقة التي لاسبيل فيها لخلق الكلمة هي الأكثر وجعًا،لو أن للكلمات رائحة القمح لما كان الجوع كافرًا..

الهرب من حياة شبه مستحيلة حلًا سهلًا عندما يصعب علينا مواجهتها،وكتابة رسالة أخيرة بحبر مالح قد تكون طوقًا للنجاة:

عزيزي لقد تقاسمنا الرغيف الخطأ لن أتحدث عنك كثيرًا، فهذا الرغيف جعلني أرى الحياة..كما رآها جارنا الكفيف الذي كان يتذكر من الحين للآخر لون السماء قبل أن يفقد بصره،علينا أن نحتفل بمرور كل هذه السنوات

المليئة بالآمال الزائفة والأحزان المتكررة ومع ذلك مازلنا على قيد الحياة.

لا شيء يجمعنا سويًا، سوى بعض الأشياء التي لا تتنفس كثرثرة على التلفاز، أو مشاجرة بين الجيران نشاهدها من نافذة واحدة..

يقولون أن الحب وحده لا يكفي. وأنا أقول إن الحب يصنع الخبز والمعجزات.. كنت أحاول جاهدة أن أصبر وأقنع نفسي اليائسة أن هذه الأوقات عابرة،لم يعد بيننا مساحات أخرى لتتربع فيها الهموم ولم يعد بوسعي الوقوف مرة أخرى على هذا المسرح الكبير لأمثل دوري ببراعة كما كنت أفعل سابقًا..

لقد انشق التنور ولم يعد هناك مزيدًا من القمح،وللسنوات العجاف طقوسها..سأبحث عن الظل وحدي بينما أنت ستبقى هنا بجانب الرغيف الأخير لتحدثه عن إثبات وجود الإله.